«ستشرق الشمسُ ولو بعد حين»[1] رواية للكاتبة تغريد عارف النجّار

ريما زهير الكردي

«**ستشرق الشمس ولو بعد حين**» رواية لليافعين صادرة في العام 2017، تستعرض فيها الكاتبة تغريد عارف النجّار، وعبر 242 صفحة من القطع المتوسّط، أحداثَ الحربِ في سوريا منذ بداياتها، مُتابعةً تداعياتها وتعقيد أحداثها المؤثِّرة. وتجري الأحداث في عائلة من الطبقة المتوسِّطة تُعبِّر عنها شخصيّة الفتاة المُراهِقة «شادن»، الطالبة في المرحلة الثانويّة وذات الاهتمامات التي تُشبه مَن هنّ في عمرها وجيلها. تحبُّ كرة السلَّة وهي قائدة الفريق في مدرستها، أبوها سوريّ وأمّها فلسطينيّة، ومن هذا النسيج المُختلَط تحوك النجّار تفاصيل تغيُّر المشهد السياسيّ وانعكاساته على النواحي الاجتماعيّة والاقتصاديّة للعائلة كنواةٍ لمُجتمعٍ ممتدٍّ، وانعكاسات الحروب على الحياة النفسيّة والاجتماعيّة للفتيات تحديداً.

في أحداثٍ مُتسارعة، وضمن خطٍّ زمنيٍّ متّسِق، ترصد الكاتبة بدايات الثورة السوريّة وانعكاسها على حياة أسرة من الطبقة المتوسِّطة بتوظيف الأدب الواقعيّ بعيدًا عن الفانتازيا أو الخيال المُفتعل. وقد ظَهَرَ هذا النَّوع الأدبيّ في أدب الطفل عقب انتهاء الحرب العالَميّة الثانية. فبعد أن كان أدب الطفل قبل ذلك يرتدي، في معظمه، عباءة الفانتازيا والخيال السحريّ وقصصَ

(1) تغريد عارف النجار، **ستشرق الشمس ولو بعد حين** (المَمْلكة الأردنيّة الهاشميّة: ط 2، دار السلوى للدراسات والنشر 2020).

الجنيّات، تحوَّل مع ضجيج طبول الحرب وويلاتها إلى أدبٍ واقعيٍّ بامتياز. فللحرب حضورٌ صادِمٌ تَمَظْهَرَ في مَفاصِل حياة المُجتمعات الأوروبيّة آنذاك، فانتقل الكُتّاب إلى توجيه الأطفال والفتيان نحو واقعهم ليتعرّفوا إلى تبعات الحرب وتوعيتهم لتخفيف الصدمات الاجتماعيّة والاقتصاديّة النّاتجة عنها، ولذا فإن اختيار هذا النوع هو الأكثر ملاءمة لمُجريات الرواية هذه، وخصوصاً أنّ النجّار تنطلق من الخاصّ إلى العامّ.

في رواية «ستشرق الشمس بعد حين» لم تكُن الكاتبة تغريد النجّار بمعزل عن تلك التحوّلات الكارثيّة التي عصفت بأجيالٍ من الأطفال والفتيان العرب خلال أكثر من سبعين سنة، وهي التي كتبت في تحوُّلات الواقع السياسيّ والاجتماعيّ وأَبرزت دور الفتاة في مُجتمعها. فالنجّار تُقدِّم نموذجَ الفتاة القويّة والمؤثِّرة في محيطها، القادرة على صنع التغيير الإيجابيّ، وفي ذلك دعم لموقف الفتاة عموماً في مُجتمع ما زال ينظر إليها كمواطن من الدرجة الثانية. هذا فضلاً عن أنّ الشخصيّات الأنثويّة في روايتها هي نِتاج آلام الحروب وانعكاسٌ لتراجيديّتها؛ بحيث نجد أنّ نماذج النساء والبنات في الرواية عبَّرت عن واقعهنّ كضحايا بشكلٍ مباشر، ومثال ذلك:

«زهرة» وتمثِّل النموذج الأوّل، وهي أمّ ماجد وشادن. تهجّرت عائلتها من فلسطين في نكبة العام ١٩٤٨، وكبرت في سوريا وعانت مع أسرتها من الشتات بمعزل عن الوطن الأمّ. تزوّجت بأبي ماجد التاجر الدمشقيّ، وعلى لسانه يَرِدُ جزءًا من مُعاناة عائلة زوجته وحرمان أفرادها من حريّة السفر والانتقال مِن دون معوِّقات: «لا أقدر أن أفكِّر أو أتخيّل أنْ أترك هذا البيت الذي عملتُ أنا ووالدتكِ على بنائه بجهدٍ ليحتضنَ عائلتنا. أتذكَّر أيضاً ما حلّ بعائلة والدتكِ بعد أن خرجوا من فلسطين. فقدوا كلّ مُمتلكاتهم ووجدوا أنفسهم في مخيَّماتٍ للّاجئين بعيدين عن وطنهم، يُواجِهون أشدّ الصعوبات في السفر والتنقُّل من بلدٍ إلى بلدٍ آخر»[2].

المصير الذي صارت إليه «زهرة» منذ طفولتها وخروج أهلها كلاجئين مِن دون الحصول على الجنسيّة في بلاد المَهجر الجديدة كان عائقاً أمامها وأمام أسرتها. أمّا مَنْعُهم من التنقّل فيتنافى مع المادّة رقم (7) من اتّفاقيّة حقوق الطفل المُعْلَنة في ميثاق

(2) تغريد عارف النجّار، المرجع السابق، ص 30.

الأُمم المتّحدة. اِنتهت حياة زهرة برصاصة طائشة في المخيَّم في لبنان، وهي التي لجأت إليه من الموت في سوريا!

النموذج الثاني الذي جاءت به النجّار في روايتها، والذي يُظهِر خَرْقاً آخر لمبادئ وثيقة حقوق الطفل الصادرة عن الأُمم المتّحدة، يتمثَّل في ابنة الخال «سنيّة» التي أصبحت امرأة صغيرة أحلامها لا تتعدّى حاكورة المنزل البسيطة، تركت «سنيّة» المدرسة بعد الصفّ الخامس لأنّ تحصيلها لم يكُن جيّداً، وبقيت في البيت تُساعِد والدتها في تربية إخوتها[3].

«سنيّة» هي انعكاسٌ لمحدوديّة إمكانات مَدارِس المخيَّم، فقدَرها أن تُحرَمَ من التعليم كنتاج النكبة التي أدّت بأهلها للهجرة، وهو ميراثها من حربِ تطهيرٍ عرقيّ قام به الصهاينة لطرد السكّان الأصليّين لفلسطين والحلول مكانهم وسلْب مُمتلكاتهم وأراضيهم. «سنيّة» فتاة فقدت فرصة التعليم بسبب عدم توافُر الظروف المُساندة لطفلةٍ تُعاني من صعوبات تعلُّم بشكلٍ ما؛ ومن جديد نرى أنّ الحرب لا تُحقِّق تطبيق المادّة (24) من الوثيقة العالَميّة لحقوق الطفل التي تنصّ على كفالة فُرص التعليم للأطفال لتبقى كثيرات من فتيات اللّجوء على هامش الحياة.

تنعدم البنية التحتيّة للمَدارِس بشكلٍ عامّ وللمنظومة التعليميّة في مخيَّمات اللّاجئين بشكلٍ خاصّ، وبالكاد يكون هناك برامج داعمة لذوي صعوبات التعلُّم ولمَن لديهم تحصيل ضعيف، وبالتالي فالفتاة «سنيّة» فاقدة لثقتها بقدراتها لقصورها عن اللِّحاق بسلّم التعليم بما يؤدّي إلى أن تصير شخصيّة تعاني من الدونيّة أمام قريناتها، ولذلك ساءت علاقتها بابنة عمّتها «شادن» بعد أن كانت مميَّزة في زمنٍ سابقٍ عندما كانت الفتاتان صغيرتَيْن.

الحروب تُدمِّر الحَجَر والبَشَر، وعلى الرّغم مِن القدرة على إعمار البنيان إلّا أنّ الشروخ التي تقع في الإنسان نفسه لا يُمكِن ترميمُها بيُسرٍ وخصوصاً في الحروب التي تستمرّ لعقودٍ من الزمان؛ إذ تفشل محاولات تعويض الفاقد التعليميّ في استدراك الواقع ليبقى الطفل هو الحلقة الأضعف في مُجتمعات الصراع. وفي حين يتَّجه الفتيان إلى

(3) المرجع نفسه، ص 119.

العمل اليدويّ أو المهنيّ، نجد أنّ التحدِّيات تتراكم على الفتيات تحديداً لفقدانهنّ سُبُل التعلُّم وانعدام فُرص التقدُّم العلميّ الذي قد يُحقِّق لهم الإنجاز الأكاديميّ ويُعينهنّ على الاستقلال النفسيّ والاقتصاديّ والتنعُّم بحياةٍ كريمة. فمِن دون التعليم سينتظرهنّ مستقبلٌ غامضٌ لا يحمل من الاحتمالات الإيجابيّة الكثير، فأيّ أمل ينتظر «سنيّة» ابنة اللّاجئ الفلسطينيّ «توفيق»؟

أمّا النموذج الثالث الذي استعرضته النجّار فتمثّل في شخصيّة «ريم». ففي تصاعُدٍ دراميّ، نرى التحوُّلَ الذي مرّت به بعد أن كانت تتمتّع بروح مُنطلِقة وبثقة بالنَّفس وتعدّد الصداقات في حياتها الاجتماعيّة العامرة: «ما إنْ فتحت ريم بابَ بيتِها حتّى قَفَزَ الجميع من مخابئهم وهُم يصيحون: عيد ميلاد سعيد يا ريم، عيد سعيد».

بعد هجرة عائلة «ريم» بسبب القصف الذي تعرّضت له الأحياء السوريّة ونجاة الناس بحياتهم، لجأت عائلة «ريم» إلى الأردن حيث يتنامى شعور الابنة «ريم» بالغربة، والوحدة، وانعدام الهدف في الحياة: «**وَجَدَ أخي عملاً كبائع في مَتجر للملابس، وأنا أيضًا وجدتُ عملًا في صالون شعر. أغسل شعر السيّدات وأُهيِّئهنّ لقصّ الشعر وأصنع لهنّ القهوة والشاي... أين ذهبت أحلامي بأن أُكمل دراستي الجامعيّة؟**»[4].

الحروب لا تهدم البيوت والمُمتلكات والثروات الماديّة في المُجتمع، بل تهدم أحلام الفتيات وآمالهنّ لتضيع ملامح المستقبل الذي ينكمش ويفقد ملامحه في عيونهنّ وقلوبهنّ.

عمدت النجّار إلى اختيار عددٍ من النماذج المتأثِّرة بواقعها والتي توصف بأنّها ضحيّة حروبٍ طاحنة وويلاتٍ نتج عنها دمارٌ نفسيّ وعلميّ وانغلاق المُستقبل أمام الفتيات. إلّا أنّ النجّار أيضاً أَنضجت نموذج الفتاة «شادن» الذي ظهر متفرّداً بسبب سلسلة مواقف مرّت بها الشخصيّة من خلال السارد العليم الذي اختارته في السرد لكتابة روايتها، وتسجيل وقائع الحرب السوريّة التي بدأت في ربيع العام 2011.

عبر 68 فصلاً كلٌّ منها مُعنْوَن بما يُلخِّص المحتوى، يبدأ الراوي بفصل «أخبار سارة»، وتنتهي الرواية بفصل «سامحيني يا أختي»، وما بينهما رحلة مُعاناة وطن بجغرافيّته

(4) تغريد النجّار، المرجع السابق، ص 75 ـ 76.

وديموغرافيّته، حيث اختارت النجّار شخصيّة «شادن» لتكون هي الشخصيّة الرئيسة في هذه الرواية. «شادن» تجد نفسها خلال شهور قليلة خارج المكان تماماً كما كانت أمّها، لكأنّه ميراث تتوارثه أجيالٌ تحمل في أقدارها ويلات الحرب، تَرِثُ صراعاتٍ لا ناقة للأطفال فيها ولا جَمل، يرزحون تحت وطأة التشرُّد والشتات الذي يُربّى في المخيّمات والمَهاجر.

تظهر آثار الصراع على الفتاة «شادن» في بنية دراميّة مُتصاعدة ابتداء من الصفحة الأولى، «**بينما كانت تفتح باب الشقّة، انقلبت حقيبة المدرسة وبدأت الكُتب تسقط منها تباعاً على الأرض**»[5]، وبهذه العبارة العابرة تمّ التوطئة لكلّ الانقلاب الذي حَدَثَ في سوريا وبَعْثَرَ أوصالها.

عندما رتّب «إبراهام ماسلو» هَرَمَ الاحتياجات الإنسانيّة صنّف الأمنَ في المرتبة الثانية. على أنّ انعدام الأمن أيضاً يُسبّب تناقصَ موارد المعيشة التي تؤثّر تلقائيّاً في الأولويّات الأساسيّة من مأكل ومشرب. وقد أثّر انعدام الأمان في الفتيات وأصابهنّ بصدمةٍ نفسيّة عميقة.

إنّ الخطر الذي تُسبِّبه الحروب ينقسم إلى نوعَين:

النوع الأوّل وهو الضرر الماديّ الذي تمظهرَ في حياة «شادن»:

- توقُّف تجارة الأب وعدم قدرته على مُتابعة عمله بسبب القصف المستمرّ على الأبرياء.
- هدْم البيت بصاروخٍ في حيٍّ تهدّمت معظم مبانيه على رؤوس المدنيّين.
- انقطاع «شادن» عن الدراسة، وعن مُمارَسة هوايتها في لعبة كرة السلّة.
- انقطاع «شادن» عن الأصدقاء والمُحيط الاجتماعيّ.

النوع الثاني: الضّرر النفسيّ المعنويّ وتمظهر في مُعاناة «شادن» في المواقف الآتية:

ـ مُشاهدة إذلال أبيها أمامها مِن إحدى جهات الصراع السياسيّ، لكون الأب يُمثِّل السند والقوّة للفتاة، ولكون إذلاله هو انكسار لها. ولكنّها قاومت بعنفوان ورفضت هجومهم على بيتهم بكلّ ما أوتيت من قوّة.

(5) تغريد النجّار، المرجع السابق، ص 5.

ـ افتعال القوّة والتماسُك كي تُحافظ على إيقاع البيت في حال سلام بعد اختفاء أخيها وقلق والدَيها عليه.

ـ توقُّف «شادن» عن الذهاب إلى المدرسة خشية القصف المُستمرّ، بما يُشير إلى تعطُّل حياتها الطبيعيّة المُعتادة.

ـ مرض الأب وموته عند رؤية بَيتِهِ وقد صار رمادًا.

ـ الهجرة من سوريا الوطن والنزوح إلى المخيَّم في لبنان عند الخال الفلسطينيّ اللّاجئ أصلاً، والشعور بالنبذ من قِبَل زوجة الخال وابنته الكبرى.

ـ عمل الأم كخيّاطة لدى إحدى النساء بعد أن كانت ربّة بيت لزوجٍ مُقتَدِر مادِّيّاً.

ـ عمل «شادن» غير القانونيّ في لبنان واحتمال القبض عليها والقلقً المُرافِق للمُجازَفة لتأمين مال يساعدها وأمّها على البقاء في منزل خالها.

ـ مَوت الأم برصاصة طائشة بسبب عرس ما، وفق ما يُعرَف بمُفارَقة الموقف، ويُتْمُ «شادن» الذي هزّ أركان ثباتها عميقاً، **إذ «تدخل شادن في نفق طويل... تبتعد فيه عن كلّ ما حولها... تجلس كالصنم، تنظر أمامها ولا تتفاعل مع أيّ أحد..»**[6]. وعندما تمّ صفعها لإعادتها من نفق الصمت إلى الواقع، **«نفرت الدموع من عيَني شادن وانفجرت في بكاءٍ طويل وعويلٍ يقطع نياط القلوب... وهي تصرخ: لا ... لا... لا... ظلّت تنادى: أم... أمي... أمي... لا تتركيني يا أمي... لا تتركيني»**[7].

ـ ركوب «شادن» قوارب الموت للوصول إلى إيطاليا مِن دون وجود أيّ ضمان للنجاة.

ـ انتقال «شادن» داخل أوروبّا من مدينة إلى أخرى تقتات على رغبتها بالحياة والوصول إلى برّ الأمان عند عمّها في السويد.

ـ الاغتراب النفسيّ والجغرافيّ والثقافيّ الذي شعرت به في السويد أو ما يُعرَف بالحلّ البديل للحياة الآمنة.

ـ ومن الصدمات المفصليّة التي واجَهت «شادن» وكادت أن تعصف بمستقبلها مُحاولة تزويجها من رجلٍ يكبرها بعقودٍ عدّة بتدبيرٍ من جارة زوجة خال شادن بعد وفاة

(6) تغريد النجّار، المرجع السابق، ص 163.

(7) المرجع السابق، ص 164.

والدتها: «**إنّه رجل مقتدر، ستّ تعيش في العزّ والدلال وسيدفع لخالها مهراً محترماً..**»[8]. لكأنّ الصفقة واجبة الحدوث مع رجل يبلغ من العمر خمسين عاماً ومتزوّج وله أبناء.

هذا الموقف حرَّك «شادن» وأعادها إلى رشدها كي تُجدِّد حياتها وترفض أن تكون سلعة تُباع وتشترى. هزّ هذا الحديث شادن عندما سمعته خلسةً وأَخرجها من حالة اللّامبالاة والاكتئاب[9]، وكان المُحرِّك نحو قرارها بركوب القوارب المحفوفة بالموت للهرب إلى أوروبّا حيث عمّها المُقيم في السويد. فرزحت «شادن» تحت مسؤوليّة عظيمة عبّرت عنها النجّار في وضعها الحزام الذي أوصاها أبوها لتتمنطق به حول خصرها مِن دون أن يفارقها مهما تقلّبت الأوضاع، وفي ذلك الحزام أوراق العائلة الرسميّة ومبلغٌ من المال.

هذا الأمر جَعَلَ من «شادن» الوريث الشرعيّ للتراث والميراث بمعناهما المعنويّ والماديّ، وهذا ثقل عظيم يقع على كاهل فتاة في بداية وعيها. فقد رافقها الحزام من سوريا إلى لبنان مروراً بتركيا وإيطاليا وعدد من المُدن الأوروبيّة حتّى وصلت إلى السويد حيث الملجأ الآمن. وهنا كانت لحظة الانفجار العاطفيّ بعد تراكُم الحزن والكبت الذي عانته عندما «**سألها أحد المسؤولين عن أهلها وعن سبب مغادرتها للسويد. لم تستطع شادن أن تتمالك نفسها عند ذكر أهلها فانفجرت باكية وهي تقول لهم إنّها أصبحت يتيمة الأبوَين**[10]، وهذا كان ذروة التأثير الذي تركته الحرب على «شادن» بعد سلسلة ويلات مرّت بها.

تسلّط رواية «ستشرق الشمس ولو بعد حين» الضوءَ على الواقع المؤلم الذي عاشته كلُّ فتاة بسبب الحرب، والتردّي النفسيّ الذي نزفت بسببه آلاف العائلات والمآلات التي تدنَّت فيها الآمال، وتهشّمت على صخور واقع الهجرة واللّجوء وتشرُّد الأحلام. غير أنّ النجّار أفسحت للأمل مجالاً فواربت له باباً عندما ألحقت «شادن» بعمّها في السويد لتبدأ حياة جديدة. فتوَّجت قفلة الرواية بضرورة العودة إلى العِلم والتعلّم كسلاح لكلّ فتاة من أجل الاستمرار، «**سمعت شادن نقرًا على الباب... إنّها آنّا... دخلت وفي يدها كومة من**

(8) المرجع نفسه، ص 167.

(9) تغريد النجّار، المرجع السابق، ص 167.

(10) المرجع السابق، ص 220.

الأوراق... تريد أن تتحدّث معها عن الجامعة التي ستسجِّل فيها بعد أن تتخرّج من معهد اللُّغات»[11].

رواية «ستشرق الشمس ولو بعد حين» رواية غارقة في واقع الوجع السوريّ وطوايا مأساة كلِّ فتاة تحمّلت نصيبها من تلك الفواجع المُتلاحقة التي تنتج عن أجواء الحروب، فضلاً عن الزعزعة السياسيّة والاجتماعيّة والتفسُّخ الحياتيّ الذي يُلازم الفتيات نظراً لأنّ الأنثى دائماً أكثر عرضةً للقلق النفسيّ من الذكر. فكلّ ما سبق من مُواجهاتٍ وسيناريوهاتٍ حياتيّة في الرواية يعكس ما مرّت به كلُّ فتاة سوريّة بشكلٍ ما، أو على الأقلِّ بعض ما واجهت منه. وهي مُواجهات لا بدّ مِن أنّها تركت رعباً ما يهزّ أوصال النفس ويُفتِّت استقرارها الداخليّ لتصيرَ الفتيات في حال تهديد نتيجة فقدان الوطن والأمان والنزوع إلى القلق والتوتُّر من مُستقبل غامض لا يُعرَف له نهاية حتّى تضع الحرب أوزارها.

تنفرد هذه الرواية بموضوعها وتفاصيلها وبإظهارها دَور الفتاة الصامدة والمُثابِرة العاشقة للحياة والمؤمنة بالحبّ، فتاة لا يُفَتُّ عضدها مهما آلت إليه الأحداث. استطاعت النجّار أن تُبدِع رواية مُلهِمة لكلِّ فتاة كوّنتها مركّبات فريدة لا تقبل الهزيمة ولا الانكسار فتصير مبعثاً للأمل المتجدِّد والتوجُّه الحيويّ نحو الفعل الإيجابيّ على الرَّغم مِن كلّ القهر والظلم وتردّي الأوضاع. لذا لا بدّ من تدريس هذه الرواية ومُشاركتها فتيات هذا الجيل والأجيال المُقبلة أيضاً كونها تنتصر للفتيات صانعات الحياة.

المصدر: تغريد عارف النجّار، **ستشرق الشمس ولو بعد حين**، دار السلوى للدراسات والنشر، المَمْلكة الأردنيّة الهاشميّة، ط 2، 2020.

(11) المرجع نفسه، ص 242.